



المشرق

السنة الواحدة والعشرون

٢٥ - كانون ١٩٥٢

الطيب الأثر الأب لويس شيخو اليسوعي

مُشَيِّقٌ: مجلة «المشرق» ومُؤَسِّسُ المَكْتَبَةِ المَشْرِقِيَّةِ (١٨٥٩-١٩٢٧)

بِغَلْمِ الأَبِ بَطْرُسَ سَارِهَ البَنْدَانِي

يطيبٌ لنا، لمرور ثلاثين عاماً على وفاة فريد العلم والفضيلة (١٧ ك٧ ١٩٢٧-
١٩٥٢) ، الطيب الأثر الأب لويس شيخو اليسوعي ، ان نشر ترجمته على
صفحات هذه المجلة «المشرق» التي انشأها وطالما غذأها بقلماته وابعثه القيمة
من دينية وإدبية واجتماعية وتاريخية ؛ وقام بإدارتها نحواً من ثلاثين سنة بغيره
ونشاط لا يعرفان ملاً ولا كلاً ، الى ان سقط في ساحة الجهاد شهيد العلم
والدفاع عن الدين ومبادئه القويمة . وقد ترك من آثاره المخطبات ما يؤلف
مكتبة تشع بكل جليل نفيس وتنطق بما كان عليه ذلك الدماغ المنكر والقلب
الكبير من نهضة ادبية تظل غيرة في جبين شرقنا هذا ما كرت الايام وتوالت
الاعوام .

وقد اعتبنا بهذه الترجمة على ما قدمه لنا حضرة ابن شقيقه الاخ رفائيل شيخو اليسوعي ، من معلومات كانت بيده أو جمعها بما روت بعض الصحف والمجلات ، أو تناولها عن السنة من عايشوا الاب المترجم رحمه الله . وسنقتصر في ذلك على مراحل حياته وخطوطها الكبرى من حيث هو فتى وراهب دارس وكاهن عالم عامل لا سيما هذه المرحلة الاخيرة ، اذ يعجز العلم عن استيعاب كل ما انطوت عليه تلك الحياة الزاخرة باجل المعارف واكل الفضائل ؛ وقد انتشر شذاها في ربوعنا اللبنانية وفاح عيرها شرقاً وغرباً .

الفتى

منأه :

في قلب ما بين النهرين على مسافة نحو ٩٠ كيلومتراً شرقاً من ديار بكر ، ونحو ٥٠ كيلومتراً غرباً من بلدة نصيبين المعروفة بوطن القديس فرام الشهيرة بدارسها في ذلك العهد ، ترتفع سلسلة جبال ، شُيدت قديماً على احدى قمتها الوعرة قلعة عظيمة ما زالت قائمة ، على رغم عواصي الدهر . وتطل القلعة على سهل خصيب بياض الخابور . وهو ساعد شرقي من نهر الفرات . وعند اسفل هذه القمة والقامة تستقر مدينة ماردين على علو ٦٠٠ متر عن سطح البحر . قد أمت في الحرب الكونية الاولى ١٩١٥ متتبع عذاب للمسيحين الابرياء ، فاستشهد منهم الوف وفي مقدمتهم المطران مالويان مع ١٦ كاهناً من سني الطوائف . وكان آن ذاك سيادة المطران جبرائيل تبولي (نياقة الكردينال الحالي) شاهداً لهذه المأساة يتمزق قلبه المألولوعة دون ان يتمكن من انقاذ تلك الضحايا البريئة ، فكان دما . اولئك الشهداء بذاراً لكثير من الدعوات الكهنوتية والرهبانية : في تلك المدينة كانت اسرة شيخو الكريمة الكلدانية تتسع بالثروة والرخاء ؛ وتضم بين اعضائها رجالاً اشتهروا بنفوذهم الواسع وعرفوا بالثقوى والزهد ، منهم خال المترجم الاب جبرائيل دنبو ، مجدد الحياة النكية ومؤسس رهبانية مار هرمزدا بقرب الموصل ، قد لُقبت بالانطونية واستشهد الاب جبرائيل دنبو بجناجر الاكراد ١٨٣٢ ، ونشر المثلث الرحمت المطران اسطفان كنجو الكلداني تفاصيل استشهاده وترجمته حياته بمجلة (النجم) ١٩٣٠ التي تصدر في الموصل .

في تلك المدينة ماردين ابصر المترجم النور في ٥ شباط ١٨٥٩ وكان والده
 الشماس يوسف شيخو وجيه بغيرته وزعيمها ؛ اشتهر بتجارته الواسعة كما عرف
 باستقامته وحنن تقواه . وقد زار الاماكن المقدسة فلقب بالمقدسي كما لقب
 « بالشيخ » لعلو مقام أحد اجداده ؛ ثم أطلق هذا اللقب على الاسرة بأجمعها
 مع اضافة حرف (الوار) وفقاً لهجة البلاد المتفوق فيها المنصر السرياني الكلداني .
 كان للشيخ يوسف المذكور من زوجته اليصابات ثمانية اولاد اكبرهم البكر
 عبد المسيح والاب (ستانسلاس) واصغرهم رزق الله (الاب لويس) . فنسب
 ترعرع هذا الاخير ادخله ابواه مدرسة الآباء الكبوشيين المرسلين في ماردين ،
 فنال قصب السبق على اقرانه لما كان عليه من حدة الذكاء والذاكرة والرغبة
 في التحصيل ؛ عاكفاً على ممارسة الصلوات والحفلات الدينية فشخصت الانظار
 اليه وكان الكل يتساولون ما عساه يكون رزق الله الفتى ؟ اليك الآن ما
 كان من تدبير العناية الالهية في انصواء الاخرين عبد المسيح ورزق الله شيخو تحت
 لواء القديس اغناطيوس دي لويولا في جمعية الآباء اليسوعيين . في السنة ١٨٥٠
 اقبل الى مدينة ماردين المونسنيور بلانشه (Blanchet) اليسوعي النائب الرسولي
 في ما بين النهرين ومعه رفيقه الاب لايور . فتعلق بها قلب الشاب عبد المسيح
 شيخو ، فاراد بدعوة من الله ان يهجر العالم ويتجند في معسكر الآباء اليسوعيين
 فسار الى ديوم في غزير (لبنان) وانخرط في سلكهم باسم الاخ ستانسلاس
 شيخو (١٨٥٣)

ولما قدمت والدته اليصابات الى زيارة الاراضي المقدسة وصحبتها الفتى
 رزق الله عرجت على دير غزير لزيارة ابنها البكر . وما وقع نظر الفتى رزق الله
 على شقيقه الزاهب اليسوعي حتى أحس بقرة داخلية جذابة تدفعه الى ترك الدنيا
 والمكوث في الدير لمجده تعالى وخير النفوس . وما زال يلحف على والدته التقيّة
 الى ان استألمها لتقدمه هو أيضاً كشقيقه ذبيحة رضى لله ، ولم يكن يتجاوز
 الثامنة من العمر . فقلّمته المدرسة الاكليريكية غصناً نظيراً وغرسة صالحة
 في أرضها الطيبة فنا وأنبع وازهر مبتسماً لشمس المحبة الالهية تحضه بأشهى
 ثمار الفضائل واسمى العلوم الدينية والدنيوية . فانصرف الى درس اللتين العربية
 (١) وعند عودتها الى حلب حاجبها الاكراد وقتلوا بالمتاجر قرب بلدة سوبرك سنة ١٨٥٢

والفرنسية فأبدي دلائل النجابة والذكا، مما ادهش اساتذته ورفاقه . وما مضى على وجوده في مدرسة غزير سبع سنوات حتى اختسرت دعوته الرهبانية، فنصّارح رؤساءه بذلك وسألهم ان يقبلوه في عداد ابنا. الرهبانية. فأجابوه بمدان تحمقوا صدق دعوته وقبلوه وهو في الخامسة عشرة من العمر . وفي السنة ١٨٧٤. أبحر الى فرنسا للدخول في دير الابتداء. في مدينة لونس له سونيه (Lons - Le Sonier) وسُمّي الاخ لويس . بقضى هناك ثلاثة اعوام مكباً على اقتباس الفضائل الرهبانية ودرس الآداب اليونانية واللاتينية والفرنسية. ثم رجع الى بيروت حيث كانت المدرسة الاكليريكية الشرقية ومدرسة غزير قد نُقلت اليها لتكونا نواة كلية القديس يوسف .

الراهب والكاهن التقي النيور

لما عاد الاخ لويس من ديار المغرب عهد اليه الرؤساء بتدريس الآداب العربية . وفي الثامنة عشرة من عمره (١٨٧٢) كان استاذاً للصفوف العليا ، فأخذت مواهبه تنمو وترهق بين جدران الكلية اليسوعية حيث طوى اخذ عشر عاماً مدرساً نشيطاً واستاذاً عاملاً. وفي السنة ١٨٨٨ غادر بيروت ميسراً انكلترا لينهي فيها دروسه اللاهوتية. وبعد درس اربع سنوات دقّ الى درجة الكهنوت المقدسة (١٨٩٢) . ثم قفل راجعاً الى بيروت بعد ان اتصل بكثير من العلماء المستشرقين وزار خزائن الكتب الكبرى ووقف على ما فيها من المخطوطات الشرقية . عاد الى كلية القديس يوسف ليواصل تشييد البناء والصرح العلمي الذي كان قد وضع اساسه قبل ذهابه الى عواصم اوروبا. فكرّس جهوده الجبارة ، مدة ربع قرن ، بالتعليم وادارة الدروس العربية ، واعار اهتمامه الخاص المكتبة الشرقية فجمع كتبها ومخطوطاتها، بشق النفس ومعاونة الاسفار العديدة الى مختلف البلدان والامصار ، دون ان تصرفه هذه المهام عن اعماله الرسولية . فكان لا يني عن القاء الرياضات الروحية والمواعظ وسماع الاعترافات كلما دعا الراجب . وكان مثال الحشوع والورع في القيام بفروضه الدينية وتقيده بالقانون الرهباني لا يحيد عنه قيد شعرة . شديد التعمد لقلب يسوع الاقدس ولسيدتنا مريم العذراء. كثير الثقة بشفاعتها . وما يروى عن تعلقه الوثيق بالام الالهية ما قصه الاخ

اسكندر خوري اليسوعي قال : « رأيت ذات ما . ، الاب لويس يجرّ مقالاً وهو يتمشى على السطح تحت ضو. القمر الباهت فاشفقته على عينيه ان ينالها مكروه . فدنوت منه وسألته ان يكف عن العمل رأفة بناظره فما كان منه الا ان ابتم وقال : « اسمع يا اخي ، اني حين كنت في دير الابتداء بفرنسه طراً على ضعف شديد حمل الرئيس على التخوف من حلول مصيبة تذهب بعيني فتطفئها . وكان من البديهي ، لو وقعت المصيبة ، ان اخسر دعوتي واضطر الى العودة من حيث أتيت . بل ان الرئيس همّ بارجاعي الى الوطن . ورأيت نفسي تجاه الامر الواقع وما في اليد حيلة . ولم يبق لي من مرجع سوى العذراء القديسة ام الرحمة والتفزية ، فاسرعت الى مذبحها في الكنيسة اخاطبها بثقة بنوة حادة ، فنجشوت عند قدميها وابتهمت اليها بنفس كنيته وقلب يائس قائلاً : تطين يا سيدتي انني أصبحت منذ سنوات جندياً لابنك يسوع فان شئت ان اظل تحت رايته ، اخدمه طول حياتي ، فامنعيني نظراً سليماً صحيحاً لمواصلة دعوتي الرهبانية . خابت أمالي في اطباء الارض ، فلا تحيي أمني فيك ابتهبا الطيبة السماوية . ومنذ ذلك الحين ، ابي منذ خمسين سنة وانا متمتع بنظر صحيح اجهد عيني فلا اريحها بنظارة ما . وكل ذلك بفضل ام المعونة مريم العذراء الخنونة . اما فضائله الرهبانية فحدث عنها ولا حرج ، وقد امتاز بوداعته وتواضعه واستلامه لارادة الله تعالى ابان المحن والتجارب كما يبدو ذلك في بعض رسائله الى ابن اخيه الاخ روفائيل شيخو الذي كان مع بعض الاكليريكيين في احد اديار رهبانيتنا اللبنانية في اتنا . الحرب الكونية الاولى . فكتب اليه : « ان العزلة لا تكون شديدة الوعاءة على من يعرف ان يضلي ويشتمل ؛ ذلك عنوان المتوحدين القدماء . وهو عنانك وشعارك في زمن الصيف هذا . »

وكتب اليه بمناسبة عيد الفصح للسنة ١٩١٥ قال : « اذا كانت افراح هذا العيد في هذه السنة اقل ابهة منها في الماضي ، فالتفزية الباطنية هي فائضة فينا . على المسيحي الا يستسلم الى الحوادث الخارجية ، بل عليه ان يكرّم مع القديس بولس : « احتفظوا بالفرح الباطني الذي ليس لاحد ان يخطفه منكم . اذا كان خدام الله الامنا . يجدون ما يتتبعون به حتى في ضيقات الحياة ، فما ذلك الا لانهم يعرفون يد العناية الالهية التي لم تسمح بذلك الا لحبنا وسعادتنا . »

وبما قاله فيه سيادة الوكيل البطريركي الكلداني في حاب هذه المباراة : « قد تجأرت من فضيلة الاب شيخو وانشرت من عطر وداعته الفائح اكثر مما أخذت بفزارة عاومه السامية التي رن صداها في الشرق والغرب » .

ومن حديث للاب لامنس معاصر الاب شيخو وزميله : « كنت تلقاه بشوشاً ، وضع النفس ، حار الحديث ، فقد صح فيه كلام المسيح الوديع : « طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض » . لقد امتاز الاب شيخو بوداعته وتواضعه رغمًا عما كان عليه من شهرة بعيدة ومترلة رفيعة في عالم العلم والادب وعند من كانوا يقدرونه قدره . وهذا ما كنت المسه بتلك الشخصية الفذة المشعة باسمي الفضائل وأجل المناقب ، يوم كنت دارساً في كلية القديس يوسف ، ثم رئيساً على اخوتنا الرهبان التابعين للدروس فيها والمقيمين في دير مار انطونيوس الجوارر الكلية ؛ وكان الاب شيخو رحمه الله ، مديراً للدروس العربية ولجنة « المشرق » هذه . وكنت واياه على اصفى ولاء وأخلص مودة . فاذا ذكر ما كان عليه ذلك الدماغ المفكر من غزير المعارف وما كان ينبض به ذلك القلب النقي الكبير من النيرة الرهبانية على مجده تعالى وخير القريب ، والدفاع عن الدين الحق المقدس ، يدافع عنه بقلمه ولسانه . وكان في غيرته جريئاً جداً لا يتهيب موقفاً ولا يخشى خطراً . وان لم يكن له من المواقف اللامعة سرى وقفته في وجه الماسون لكفاه ذلك فخراً . لقد حاربهم وصددهم صدمات عنيفة في مقالات مشهورة في « المشرق » ولم يكن يابه لتهديم اياه بالاذى والموت ، بل ظل ثابت الجنان يناهض اعداء الدين والحقيقة بكل ما اوتيته من حجة دامنة ومنطق صادق ، ورأي سديد . تلك كانت فضائل الاب شيخو الراهب والكاهن واللاهوتي والفيلسوف والمجادل ، ولم تذكر منها الا قليلاً من كثير .

العالم العامل

ما تعلم الاب شيخو ادارة الدروس العربية في كلية القديس يوسف حتى انصرف الى خدمة هذه اللغة وآدابها ؛ واذا رأى افتقار الطلبة الى كتاب سهل لهم درس لغتهم ويترجمهم في اكتشاف كنوزها ، اقبل في السنة ١٨٨٢ على نشر « مجاني الادب » تلك المجموعة النفيسة التي انتخبها من الكتب والمخطوطات

المديدة في الشرق والغرب ، وبوبها ستة مجلدات متدرجة ، وزينها ووضحها بالشكل الكامل. ثم بتطبيق الشروح الواسعة عليها من لغوية وادبية وتاريخية وجغرافية وعلمية وفهارس . وفي اربعة مجلدات ذكر فيها ، كما في أواخر الستة الأولى ، الكثير من تراجم شعراء الجاهلية والاسلام وعلما العربية وقصائدها ومؤرخيها وجغرافيتها . ولنا نبالغ اذا قلنا ان تاريخ الآداب العربي لم يعرف كتاباً اوسع انتشاراً واوفر فائدة من « المجاني » . فقد بلغت طبعات بعض اجزائه الثلاثين. وكان نحو نصف قرن ، دستور التحليم العربي في مدارس الشرق والغرب ، ابتدائية وثانوية وعالية .

وفي السنة ١٨٨٣ وضع كتاب « مرقاة المجاني » ليسهل للبتدئين الصعوبات التي يقعون عليها في تلك المجموعة الواسعة. ولا يزال كتابه « علم الادب في الانشاء والعروض والحطابة » غرضاً تتشى عليه المدارس في تدريسها هذه الفروع الثلاثة. ورغمما عن قيامه بمهام التدريس والتأليف كان يرثى المحفل الادبي ويديره بلباقة ونشاط ويمنى عناية خاصة بادارة الروايات العربية ويظهر بنفسه على تلقينها وتمثيلها ، تركاً الاثر الطيب في نفوس الطلبة . ولما رأى نطاق التدريس ضيقاً امام طموحه وهدفه السامي ، عرض على رؤسائه انشاء مجلة تكهكون غايتها خدمة العوام والآداب العربية فاستحسن الرؤساء اقتراحه وعهدوا اليه بأن يتولى بنفسه ادارة المجلة وتحريرها فقام بهذه المهمة خير قيام واصدر الجزء الأول من « المشرق » في كانون الثاني من السنة ١٨٩٨ وظل يصدرها مرتين في الشهر حتى السنة ١٩٠٨ ، فارتأى بعد ذلك اصدارها شهرياً اي مرة في الشهر مع بقاء عدد صفحاتها على ما كانت عليه اي نحواً من الف صفحة في السنة وكان بقله السائل يدبج معظم مقالاتها ، معالجاً المواضيع التي تدل على فيض قريحته وسعة معارفه وسداد رأيه في مختلف الشؤون والمباحث من دينية وروحية وادبية واجتماعية وتاريخية واقتصادية. فكان لمجلته هذه التي ادارها سيطرة ربع قرن ، منزلة رفيعة عند العلماء شرقاً وغرباً . وقد كتب المستشرق باربييه دي مينارو في المجلة الاسيوية ملخصاً مقدمة العدد الاول من « المشرق » الطالع ، قال : « مقدمة عربية تأنق بكتابتها الاب لويس شيخو رئيس تحرير مجلة المشرق ، قد اعرب عن فكرة الجامعة اليسوعية في اصدارها هذه التشرة الجديدة ، هي

فكرة منافس شريف ومشرع فيما بين العلم الاوربي وبين الثقافة العقلية الشرقية .
 لقد كشفت هذه المجلة لاوريا كنوز الشرق وفي الوقت نفسه اعطت في عدد
 وافر من الشرقيين، روح التدقيق والتنقيب والرغبة في النهضة الادبية. ولم تكن
 الخسة والعشرون مجلداً من « المشرق » التي اذاب خمأ وعشرين سنة في
 تدبيجها ، تصرفه عن التأليف ووضع الكتب الشائقة . فكان يتناول شتى
 المواضيع بما اتاه من المصنفات القيمة التي تشهد له بطول الباع في خدمة العلم
 والامة بفرورها العديدة . وذلك عمل خطير شاق يعجز عن القيام به الكثيرون
 من الكتاب والادباء . ونظرة واحدة الى لائحة كتب المطبعة الكاثوليكية
 تنبئ بما الاب لويس شيخو من تأليف ناضجة التفكير مخسرة الرأي ، طافحة
 بالابحاث اللغوية والمقالات الادبية . فمن « فقه اللغة » الى « الآداب العربية في
 القرن التاسع عشر » الى « شعراء النصرانية » (١٨٩٠) قبل الاسلام ؛ تد
 اتمه بثلاثة اجزاء بعد الاسلام (١٩٢٢-١٩٢٦) .

وقد جمع تراجم الشعراء الجاهلية واسماهم من المخطوطات والمطبوعات
 المتفرقة وبوبها وشرحها وذكر اختلاف الروايات فيها . ولم يثبط عزيمته ما عاناه
 في هذا العمل الشاق من التعب الكثير والتنقيب والتحديث في تلك المخطوطات
 التي تقادم عهدا فعلاها النبار وعلت فيها يد الدهر وذهبت ببعض حروفها
 وسطورها . ولهذا وصف المستشرق س. نالليو همه الاب شيخو ، مقدرًا جلده
 وصبره على العمل ، فذكر اشتغاله في رثاء الحنساء وابن السقيط وكليدة ودمنة
 مع جميع ما اتاه من الانتقادات العلمية والشروح المفيدة .

وكان اول ما نشر من تلك الابحاث، مقالاته الخالدة في الاستنتاج والتنقيب
 عن « الاحداث الكتابية في شعراء الجاهلية »^١ فتلقاها العلماء بغير الاعجاب
 والثناء . وفي السنة ١٩٢٢ اتهم ذلك الكتاب النفيس الذي كان بدأ به قبل
 الحرب ، الا وهو « كتاب النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » . اليك ما
 قاله فيه المفكر المدقق الدكتور فيليب حتي احد اساتذة الجامعة الاميركية ،
 في مجلة الكلية (١٩٢٢/٩ - ٢٣/٢٨٥) ، وقد سر كل السرور لظهور
 كتاب يروي ظمأه الى البحث الوصفي ، نال : « انه لا يصعب علينا ان نتصور



الاب لوريس سنجور البسوعي

١٩٢٦ - ١٩٥٤

الطريقة التي جرى عليها المؤلف في وضع كتابه هذا، فإنه لم يتفرد الى شاطئ. بحر او تحت شجرة في ليلة مقمرة ولم يحك من وجدانه أفكاراً ومن مخيلته آراء، بل عمد الى المجلدات والكتب والى المجلدات والتأليف وقضى الوقت الطويل بفنش في ثناياها عن المادة التي يطلبها وينتقب في بطونها عما يتناول موضوع بحثه. ثم جمع هذه المادة - ومحضها وغربلها ونسقتها وبوبها واستخرج منها استنتاجاته وقدم للعالم نذيجة مجهودات عقلية، تناولت عقوداً من سني حياته في كُتيب يطالعه القارىء في خلال ساعات. هذا هو التأليف العلمي الصحيح^{١١}.

كان الاب شيخو عارفاً اثنتي عشرة لغة منها المبرانية واليونانية القديمتان وقد درس كل هذه اللغات وكشف عن غوامضها تحقيقاً لما كان يهدف اليه من انشاء مكتبة شرقية تجمع بين جذرائها المخطوطات الشرقية القديمة والآثار الادبية الرائعة. فإنه لما قدم بيروت في السنة ١٨٧٩، لم تكن هذه المكتبة تحتوي الا على النذر القليل من الكتب بما لا يزيه له، اما عند وفاته فكانت تشمل على ٤٠٠٠٠ مجلد و٣٠٠٠ مخطوطة اشتراها هو نفسه ونسخ بعضها بيده. فكان في كل صباح يلزم المكتبة ساعات طويلة مشتتلاً في الكتابة. وقد عانى في سبيل اغنائها بالكتب والمخطوطات القيمة، الاسفار البعيدة حتى الى الهند. وزار اكثر عواصم اوربا واطلع على ما تحتوي عليه من الآثار الشرقية النفيسة والمخطوطات العربية الفريدة فاقبس منها ما استطاع واستنسخ ما توفر له استنساخه. وكان الرزسا يمدونه بكل ما لديهم من المساعدات المادية والادبية للقيام بهذا العمل الحطير. ولهذا الغاية كان يجول في قرى لبنان وادياره وعواصم سوريا كدمشق وحلب... وفي السنة ١٨٩٥ قدم الى ما بين النهرين وكانت يومئذ فريسة الاضطراب في العهد الحميدي من جراء اعتداءات المفلول ومع ذلك غامر الاب شيخو بنفسه وزار مع أحد الآباء أورفا وماردين حيث افتقد امه واخوته، ثم قصد الى ديار بكر فأرسل وبفداد ومنها الى عيبي. وعاد الى بيروت بعد سفر شاق دام اربعة أشهر توفيق فيه الى جمع مخطوطات عديدة نفيسة.

(١) الشرق (١٩٢٨ / ٨٦ : ٩١) من مقال الامااذ فراد افرام البستاني : تأثير الاب شيخو في تاريخ الاداب العربية.

ان هذه المكتبة هي من اجل المكاتب في الشرق، بل وفي الغرب ايضاً. وهي مائة عظيمة تنطق بفضل الاب شيخو وتحفظ له ذكراً طياً لا تمحوه يد الدهر. وفي خريف سنة ١٩١٣ دخلت تركيا الحرب الكونية الاولى فاحتلت جنودها كلية القديس يوسف وانتزعتها من يد الآباء اليسوعيين الذين لجأ بعضهم الى دير مار انطونيوس في بيروت ومنهم الاب لويس شيخو، فأخذ يفكر ماذا عساه يكون من امر المكتبة الشرقية ومخطوطاتها ثمرة اتماره وعرق جبينه. فشق عليه جداً ان يترك خزانة كتبه هذه العزيزة على قلبه ولا شيئاً بعد ان احس بان الحكومة التركية تنوي ابعاده لكن الله تعالى هياً له كاظم بك والي بيروت الذي كان يقدر فيه العلم ويحترم الفضيلة فسمى لدى جمال باشا البتّاح في ابقائه في بيروت ونجح مساه.

وفي السنة ١٩١٦ طلب اليه هذا الوالي ان يضع كتاباً في تزيين بيروت وآثارها القديمة فقبل بهذا العمل، شرط ان تفتح له المكتبة الشرقية. فكان له ذلك فأتمها فرصة سميعة نظّم فيها جدولاً ضافياً لهذه المكتبة حفظاً على نفائسها. واستطاع بهذه الوساطة ان يأتي دفعتين في اليوم، صباحاً ومساءً، للقيام بجهته. لكن خصومه الماسون وشوا به الى جمال باشا فزرم على نفيه وكتب الى الوالي كاظم بك في ذلك، فاجاب قائلاً: « ان الواجب يقضي علينا بأن نحترم لهذا الرجل، خدمته الجمة للعلم ولا يسرع لنا ان نسي. اليه » وبهذا كان سعي الماسون فاشلاً. وقد وصفته مجلة « الملائح » وذكرت سكتة المألوفة في تلك الايام العصية قالت: « القلم بيده يدون خراطمه العلمية او ينشع ما عن له من الادلة. طلب من جمال باشا الى المجلس العرفي العسكري وبينما كانوا يقضون في امره كان هو مكباً على نصوص قديمة يتقلبها بين يديه، فلما موقفه هذا الحر الى احد ضباط المجلس، فقال له معارونه: « دعه انه سلطان اللغة العربية ».

— ولما اقترع ناظم بك وضع (سالنامه) للبنان طلب الى اليسوعيين القيام بهذه المهمة فكتب الاب صالحاني القسم الجغرافي. وبحث الاب شيخو في الآثار القديمة وعهد الى الاميركيين بالفصول الجيولوجية والتاريخ الطبيعي والاقاليم. وكانت مكافأة الاب شيخو عن هذه الاعباب، شيئاً من التلة والقوت اليومي ١١ وقد تمكن في تلك الفرصة السانحة ان يحتفظ باهم المخطوطات التي كتبت في المكتبة

انلا تعبت بها ايدي الضياع او يطمع بها طامع . ويمجز القلم عن وصف ما عاياه هذا الاب البار في تلك السنوات الاربع التي مرت عليه كأجيال وكان فيها مستسلماً للإرادة الالهية .

وما وضعت الحرب اوزارها حتى أخذ ينكّر في مراصلة اعماله ، على رغم ما ألمّ به وبأهله من البلايا والمحن . فكنت تراه كسابق عادته يقضي الساعات الطوال ، امام مائدة الشغل في المكتبة الشرقية تحيط به مئات الكتب والرسائل والمجلات الشرقية والغربية . ويواصل حملاته الشديدة على الماسونية كاشفاً البقاع عما تضمره من الشر للمسيحية واثباتها . وفي السنة ١٩٢٣ اصدر رسالة ضافية ضد هذه الشيعة المسمومة .

وتقدراً لفيض انتاجه العلمي الذي غمّر به البلاد اهدته الحكومة اللبنانية وسام المعارف الذهبي . ومما جاء في إحدى فقرات مرسوم الاهداء هذه الصاربه البعيدة المرصم : « وخدم الاب شيخو لبنان خاصة وبلاد الشرق عامة بما نشره من التأليف عن تاريخها وآثارها وعادها حتى بلغت مطبوعاته المئة والعشرين مجلداً فاستحق شكر لبنان » .

وهذه المئة والشرون مجلداً من نتاج الاب شيخو توازي في نظر المفكرين والعلماء الوف المجلدات التي تطلع علينا بها المطابع ؛ ولا سيما وهي في مجموعها تتطلب الوقت الطويل والتحريض الشاق والاستقراء الرصين . وفي هذا ما فيه من تقنيب مستمر ودقة ملاحظة . فاذا أمعنا النظر في هذا كله وقفنا على صورته ولو مصغرة كالجهد والاعتاب التي عاناها المترجم في خدمة اللغة والعالم والدين . وقد ذاع صيته بين العلماء المشرقين فأكبروا همته وقدره حتى قدره . دعوه لعدة مؤتمرات علمية في مختلف البلدان الاوربية كبرلين وكوبنهاغ حيث كان يتصفّح المخطوطات العربية بعد أن احس بثقل السمع وكان موضوع اعتبار الرجال الكبار ؛ وكثيراً ما كان مرجعاً لبعض المسائل العلمية والتاريخية وغيرها . وقد وقف معظم معلوماته وجهدده بوجه خاص على خدمة الشرقيين كما يدل عليه شماره العلمي المدرج في اول صفحة من المشرق حيث يقول : « اني افضل دائماً كل الابحاث المتعلقة بالشرق والطوائف الشرقية . . . لتلايقال : ان الغريب ادري بما في البيت من اهله » . لذلك تراه قد وجه جميع جهوده في خدمة دينه المحبوب وهذا الشرق العزيز .

وفي السنة ١٩٢٥ تألفت لجنة من نخبة رجال العلم والادب للاحتفال بيوبيله الذهبي لحسين سنة صرفها في الرهينة مجاهداً في خدمة الدين والعلم . وقد ضم ذلك الاحتفال كبار رجال الدين والدنيا ؛ تبارى فيه الخطباء والشعراء اطراء ومدحاً للرحماني به . ولا يسمننا المقام لذكر كل ما قيل فيه ، فنكتفي ببعض ما جاء في القصيدة العديده للرحوم الحوري بطرس البستاني استهلها :

« كلّ البراع وما كلكت فذنبه وانظر الى الذكر الذي احرزته »

لغة حملت لواثها منذ الصبا وثرته في الخافقين وصنفته

ولكم علا بين اللغات مقامها لما تحلّت بالذي رصنفته

« ما الترق الوهاج الا كوكب ملاء البلاد هدى بما اودعته »

« « الصداح الا بلبيل سكرت به الاذان منذ انطلقته »

ذاب الحديد ولم تذب الكهمة وبدا لها الصب الجروح قرصته »

خمين عاماً قد طويت محلقاً كالنسر تقرأ بالذي عاركته »

وشارك الحق المين يصونه قلم على الحق المين وقتته »

« لو كان ينصب في الحياة لمحسن م أثمر على ما شاد مما شدته »

نصروا لك التمثال فوق منارة شامة من مجموع ما انشأته »

ومن قصيدة للاستاذ حلیم دموس ضمها بتاريخ موفى لايوبيل :

« نعم الحياة حياة العلم والادب فرجا خالد في صفحة الحقب »

« خمسون عاماً !!! وكم فيون من أثمر ومن جهاد ومن جهد ومن نصب »

« جمعة كفرار السيف ماضية الى انطاق « مجاني » الصحف والكتب »

لوقيل في الهند او في الصين مكتبة لطار من قطب قاصر الى قطب »

أوقيل في الشهب سقر خطه قلم لراح ينشده في السبة الشهب »

بئله قلتته أم الثنات على بئله فلتاخر دولة الادب »

يا ايما الشيخ يا من لست اذكره ألا ذكرت مثال الجد والدأب »

سر في جهادك واستقبل نعتنا فان فيها هاتف السلام العربي »

إن يفرح الغرب في يوم يورثه « فالشرق يفرح في يوبيلك الذهبي »

ووقف على الأثر الشيخ ابراهيم المنذر مُنشداً هذين البيتين وهو من زعماء
الماسون الذين كانوا حاضرين ، قال :

« طوبت خمسين عاماً في الجهاد ولا تزال تنشر ما قاب الزمان وعاء »
« كفاك فخراً واجلالاً ونكرمةً أن النفيضين في يربلك اجنسا »

يقصد بذلك الماسون والكاثوليك

وكان لي الحظ بأن احضر هذا الاحتفال الباهر واكون من جملة المهنيين .
فرأيت استاذنا وصديقنا الاب لويس يتسلم حياً، ويتضائل تواضعاً امام ما يوجه
اليه من مدح وثناء . ثم يقف في نهاية الحفلة وقد ارتسمت على وجهه تلك
الباطة والوداعة المهودة . فشكر للحفل الحاضر وقال : « اني وانا الراهب
البيط المتزوي في دير ، لا استحق مثل هذا التكريم والثناء . واذا كنت
قمت بخدمة لهذه المدينة وللآداب العربية مدة نصف قرن ، فما الفضل في ذلك
الإلهيب تلقته من والدتي في صفري ، وثقافة نلتها من امي الجمية اليسوعية
التي وسعت لي مجال الاشتغال العقلي وسهلت لي طريق العلم وامتدني بنا يلزمي
للأبحاث العلمية ، فلها كل الفضل واليها ليس الى شخصي الحقيق يوجه كل مدح وثناء . »
- وكنت يد العناية تسنده في جميع مراحل حياته فتسهل ما يطرأ عليه من
المصائب . اخبرنا المرحوم الاخ يوسف ماهر اليسوعي يوم كان مسلماً ادارة
المطبعة الكاثوليكية ، قال : « في الرابع والعشرين من شهر نيسان السنة
١٩٢٤ ، تمطلت الآلة التي كانت تطبع عليها مجلة المشرق ، بدلاً من أن تطبع
صحيحاً ، أخذت تمزق الاوراق وتعرقل العمل ، فككناها . وبالرغم من مهارة
الخبراء الاختصاصيين في معالجتها مدة ثلاثة ايام لم نعرف السبب : فالتزمت ان
اخبر حضرة الاب لويس مدير المجلة وقلت له يا أباي ، لا حيلة ولا وسيلة
لدينا لطبع « المشرق » في هذا الشهر فأرجو المهدرة فاجابني : لا يجوز ابداً
ان نحرم مشتركينا عددهم الشهري ، فاذا عُدنا الوسائل البشرية ، فلدينا
وسائل اخرى سارية فبايماننا الحي وثقتنا بالله نتغلب على هذه الصعوبة . سر معي
الى المطبعة وأرني الآلة العاصية ، ولما رأها بأمر عينه تمزق الورق ، طلب كأس
ماء وصلى عليه رافعاً عينيه الى السماء ، ثم اسرني برش الماء المبارك على الآلة

وفعلاً اخذت تتحرك وتطبع صحيحاً كما داتها. فاندعش الحاضرون من مفعول صلاته الحارة، اما هو فلم يلبث ان تركهم ذاهباً الى عمله فراراً من المدح والشنا.

مرضه ، وفاته ، ماتمه

في صيف سنة ١٩٢٧ ذهب الاب شيخو الى وادي النيل ، باحثاً متنبأ ، مجيئاً نفسه وصحته في حر مصر اللاذع وجوها الملتهب، وما أن رجع الى بيروت حتى أخذ يشكو مرضاً طفيفاً لم يقمده عن مزاوله اعماله . ورأى الأطباء . من باب الاحتياط ان يترك اشغاله المعتادة ويدخل المستشفى ، حتى اذا ارتاح فيه بعض الزمن ، تجرى له عملية جراحية تميد اليه كمال الراحة والعافية . فخضع لارادة الرؤساء ومشورة الأطباء ؛ ودخل المستشفى . واذا كان يستمد للعملية ويأخذ بعد حين وآخر بعض المعالجة ، كان لا ينقطع عن مألوف عمله من تجبير المقالات ومراقبة طبعتها. ولم يكن الاطباء يجدون مانعاً يتعمه عن ذلك ، لما كان يتسع به من مظاهر القوة وحسن البنية. فأجريت له العملية ونجحت كل النجاح. وبينما الجميع ينتظرون عوده حاصللاً على ما يرغبون له من البرء والشفا. التام ، اذا بأعراض غير مألوفة طرأت على امعائه ، سببت له وهناً في القلب. فبذل الأطباء كل ما يقدر عليه الطب من المساعدات لتلافي الوهن الزائد ، لكن الضربة كانت قاضية فلم تنجح فيها حيلة . فلفظ الاب لويس شيخو انقاسه الاخيرة بنته من دون نزاع. بينما كان المتولون تمريضه يستعملون الوسائل لتخفيف ما كان يشعر به . وكانت وفاته يوم الاربعاء في السابع من كانون الاول من عام ١٩٢٧ ، ليلة عيد الحبل بلا دنس . كأن هذه الامم الرؤوف أبت الا ان تشرك عبداً الامين في افراح عيدها المجيد في عالم السعادة والبقاء . - وما كاد يذاع في المدينة نبأ وفاته ، حتى التاعت له القلوب ، أسفاً وحزنناً فاستفدحت الحواطر . فالتأم مجلس الوزراء وقرّر باجماع الرأي ان يهدي اليه وسام الاستحقاق اللبناني وقد وضعه رئيس الوزارة على جثمان الفقيد في الكنيسة قبل مباشرة صلاة الجناز . وقد اقبل على جامعة القديس يوسف رجال الوجاهة والادباء يشاطرون الآباء اليسوعيين مصابهم هذا الالم. وقد زار كثيرون منهم جثمانه باكين ، متبركين منه مترحمين عليه .

وما أرف موعد الجناز حتى امتلأت اروقة الكلية بالجرع الغفيرة وأنبرت الكنيسة بالانوار الكهربائية تغطيها شارات الحداد . فازدحم فيها المتوافدون فقصت بهم على رحبها . وأبى نفر من الادباء الا أن يحملوا النمش على اكفهم ، وفي مقدمهم النائب الكريم الشيخ ابراهيم المنذر والاديب جورج افندي نقولا باز ، ومدير دار الكتب الكبرى الفيكونت فيليب ده طرازي ، فعاونهم في ذلك عملة مجلة المشرق والبشير والمصالح المختلفة في المطبعة الكاثوليكية . وكان بعض الاصدقاء ، والادباء . قد طلبوا ان يقدموا الاكلة فاعتذر اليهم مع الشكر لمنافاة ذلك عادات الرهبانية اليسوعية ولكن في الساعة الاخيرة ورد ثلاثة اكاليل كبيرة من غير سابق نذار . الاول من صاحب العظوفة وزير المعارف ، والثاني من رئيس المجلس النيابي محمد الجسر والثالث من نقابة الصحافة .

وعند نهاية الجناز نقل النمش بمركب فخم الى حيث نُقِبَ عن العيون ذلك الذي سبقي له فضائله واعماله الذكر الطيب والاثر الحميد دهرًا طويلًا .

ولم تته اذ ذلك ، مظاهر التكريم والاجلال نحو الفقيه الكريم ، لان الصحافة تنازلت حياته وظلت ايامًا تتحدث الى قرانها بذكري ما خلف من جلائل الاعمال وخالد الآثار . وقد اجتمعت كل الصحف ، حتى اللادينية ، على بكاء الاب شيخو الذي كان نبراس الفضيلة والعلم ومفخرة من مفخرة هذا المشرق واحد اساطين اللغة والاداب . ولم تكن وفاته أخف وقعًا لدى العلماء المستشرقين في اوربا ولا سيمًا في فرنسا والمانيا حيث عقد الادباء واحصاء القلم المقالات المديدة ، مكبرين المصاب في الفقيه الكبير وآثاره الادبية ، مما يدل على ان سمعة الاب شيخو لم تكن محصورة في دائرة المشرق فحسب ، بل تجاوزت الآفاق البعيدة . واليك بعض ما قيل فيه :

كتب الاستاذ ستودومان باسم المستشرقين في هامبورغ (المانيا) قال :
« نحن ايضاً لقد أضعنا بمرتة اختصاصياً كبيراً ونشر بالفراغ الذي أحدثه فقدانه » .
وقد ابدى معهد علوم اوكرين في روسيا منتهى الاسف لهذه الحسارة الادبية وأعرب عن رغبته في تجليد ذكرى هذا العالم الجليل ...

وكتب الدكتور ايناس كراجوفسكي كاتم اسرار دروس التاريخ والفلسفة في ليننراد : « ان الضياع عظيم للعلماء العربية في العالم بأسره . فقد كان (الاب

شيخو ، بلا نزاع ، العارف الاسمي في مجاهل الآداب العربية المسيحية ويمكن القول اننا لا نجد له خلفاً في هذا الفرع . اما في بقية الفروع العربية ، فمن الصعب ان نجد له نظيراً . على ان مجلة « المشرق » التي اسسها وقام بإدارتها ، تقدم لنا معلمة للدروس العربية وبالعموم للدروس الشرقية ، واني شخصياً احس بهذا الضياع ، اذ كان لي الشرف بان اجتني كثيراً من الدروس التي القاها في الفرع الشرقي وبان اتبع محاضراته فيما بين سنة ١٩٠٨ - ١٩١٠ . وكالت لي به علاقات ودية ولم يتنح ابداً ان يندني بإرشاداته العلمية .

وكتب الدكتور اغوستس هافتر بما معناه : « ليس اعتباري لاب المرحوم (شيخو) بصفته بجائته خطير واستاذ وعلامة كبير ، بل اكثر من ذلك ، اني امت اليه بصداقة متينة وستبقى هذه الحاضرة في نفسي كاثن الحواجر » .

وكتبت مجلة اميركا الشمالية : « المجلة الاميركية للغات والآداب العربية » - ويظهر مما اتى به الكاتب ، انه كان يعرف الاب شيخو شخصياً - « كلمة شكران لذكري صديقنا الجليل والامتاذ التابع في الادب العربي ؛ ان اسمه سيقى خالداً فيما بين المستشرقين وفي قلوب الشعوب العربية ، ان تأليفه الجملة تشهد على سعة علمه وعلى ضمة نفسه وبساطة قلبه » .

ويجاول لنا ان نجمل كلمة الحثام لاحد المستشرقين البلجيكيين المشاهير ، الاب هنري لامنس اليسوعي زميل الاب شيخو وقد عايشه سنين طويلة وكاننا ممأً فرسي رهان في مضمار الفضيلة والعلم . قال الاب لامنس :

« تلك كانت الحائمة السعيدة لحياة هذا الزاهد الكبير ، العلامة . التابعة ، الذي طار حبه شرقاً وغرباً . قلت الحائمة السعيدة ، لان سعادة المجاهد الظافر لا تشبهها سعادة ارضية ، فقد ظفر الاب لويس شيخو في كلتا حالتيه ، بل قل في مضاربه : الزهد والعلم . وقد اثبتت حياته نبوغه وعبقريته في كليهما . اما في العلم فقد اثارت تأليفه وكتابه كثيرة من الحقائق العلمية ، لاينا . مشرقنا المرير . وكان كل ما كتبه ومث من المواضيع المتكورة ، على جانب عظيم من السلاسة والوضوح » .